بسم الله الرحمن الرحيم

السنن الإلهية في التفسير المقاصدي للحديث النبوي

مقدمة:

جعل الله سننه لمقاصد محكمة ومصالح منتظمة لفائدة العباد، فارتبطت السنن بالمقاصد، وقد عرض القرآن الكريم لذلك بصور بديعة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** (32)﴾ (عبس،24-32)، أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتأمل والتفكر في طعامه وكيف يمر بمراحل منتظمة وفق سنن ثابتة من نزول الأمطار إلى شق الأرض ونمو النبات وانبثاق الثمار مختلفة الأنواع والألوان، وذلك لمقصد كبير ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾، فهذه الظواهر وما يجري فيها من وتيرة ثابتة خاضعة لنواميس منضبطة هي في الأخير لمتعة الإنسان وفائدته وإشباع حاجاته بل ولأنعامه ودوابّه التي تكون له قواما في معاشه، وذلك بمشيئة الله تعالى وحكمته وعلمه ولطفه.

وهذا البحث محاولة لنسج العلاقة بين السنن الإلهية ومقاصد الدين في نصوصه وأحكامه، سواء المقاصد الكلية المعروفة وهي الكليات الخمس، أم المقاصد الجزئية، والمقاصد الكلية أوضح وأظهر مثل حفظ النفس فإن هذا المقصد يحفظ بسنن إلهية واضحة فالحاجة إلى الطعام والشراب والكساء واتقاء المضار وما يشعر به الإنسان عند الجوع أو الخوف أو الحر أو البرد كل ذلك مما فطر عليه وخلق عليه خلقا لتجري حياته وفق سنن الحفظ والوقاية من الشرور والآفات، وفي المصالح الجزئية تجري السنن الإلهية بما يناسب كل مقصد مما يحتاجه المكلف أو مما

يؤمر به في التشريع أو مما يعينه في حياته لتستقيم على الهدي الصحيح مثل أحكام الطهارة وما بثّ فيها من حكم ومقاصد جزئية تتلاءم وتتناسق، وأحيانا تلاقي أو تطابق السنن الإلهية.

(وهذه السنن تقرر قوانين محددة وتتصف بأنها دائمة خالدة وثابتة غير متغيرة ومستمرة غير متحولة، تشمل الأولين والآخرين وهذا منهاج الله في قرآنه كما حكي في آيات كثيرة)[1].

(إن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان ملائمة لحياته، وهذه الموافقة والملاءمة لا يمكن أن تكون بنت صدفة أو مجرد اتفاق محض، وإنما هي بالضرورة صادرة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد له وهو الله تعالى، ولنسم هذا النوع دليل العناية)[2].

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في الربط بين المقاصد والسنن، وهل يمكن أن تستفيد المقاصد من مزايا السنن وتتأثر بخصائصها وقانونيتها وتكون مثلها في الثبات والحكم وما يترتب على ذلك من البحث وفق منهج التحليل المقاصدي، وكيف تستفيد المقاصد من التشابه بين المجالين لإثراء الأحكام وكشف وتوسيع الحكم، كل ذلك مما يمليه هذا البحث ليكون مساهمة متواضعة مع جهود (تحقيق الاستثمار السنني المقاصدي المنضبط للسنة النبوية للوفاء بشروط ومستلزمات حركة التدافع والتجديد التي تحكم مسيرة أية نهضة حضارية في التاريخ وتتحكم في صيرورتها الصاعدة أو المتقهقرة بشكل مطرد لا يتبدل ولا يتغير ولا يتعطل)[3].

بيان المصطلح:

مفهوم السنن:

---

[1]-محمد الزحيلي، التفسير الوسيط، 950/2.

-محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 108/4. (فواجب على من أراد أن يعرف الله حق معرفته ويقدره حق قدره أن يفحص عن منافع الموجودات ويتبع الحكمة في كل موجود ليعرف السبب الذي خلق من أجله والغاية المقصودة به، وبذلك يكون وقوفه على دليل العناية أتم وأكمل)، نفسه.

[2]

[3]-طيب برغوث، إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية، 27.

قال الجوهري: السنن الطريقة، يقال استقام فلان على سنن واحد، ويقال امض على سننك وسننك أي على وجهك.

قال المراغي: (والمراد بذلك أن مشيئة الله في خلقه تسير على سنن حكيمة من سار عليها ظفر وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقا نبيئا)[1].

ولقد اهتم العلماء بالسنن حتى جعلوها علما مستقلا بذاته، (إن إرشاد الله تعالى إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه)[2].

مفهوم التفسير المقاصدي:

التفسير المقاصدي هو الكشف عن المعاني التي تفيد الغايات التي يحويها النص سواء كان آية قرآنية أم حديثا نبويا، وهو أحد المناهج المطروحة في التعامل مع السنة النبوية، (حيث يمكن ملاحظة أربعة أشكال أو اتجاهات من المتابعة والتأسي على سبيل المثال: التأسي الآلي والتأسي الانتقائي المميع والتأسي الذوقي والتأسي المقاصدي أو الموضوعي)[3]، وقد خصصت البحث للحديث النبوي الشريف واخترت لذلك نصوصا محددة.

المبحث الأول: الطاقة البشرية حديث: (خذوا من الأعمال ما تطيقون)

الحديث: عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا»[4]، وفي رواية عند مسلم وغيره: «فإن الله لا يسأم حتى تسأموا».

---

[1]-تفسير المراغي، 76/4.
[2]-محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 52/2.
[3]-طيب برغوث، إشكالية المنهج، 38.
[4]-البخاري، كتاب الصوم، باب صوم شعبان، مسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم، مسند أحمد، 80/41.

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه، وإن قل»[1].

وهناك نصوص أخرى مقاربة له في المعنى كحديث «سددوا وقاربوا وأبشروا»[2]، وحديث «يسروا ولا تعسروا وأبشروا ولا تنفروا»، وقد ذهب كثير من الشراح إلى القول بأن المعنى يطيقون الدوام عليه بلا ضرر[3]، قال النووي رحمه الله: (الملل والسآمة بالمعنى المتعارف عليه في حقنا محال على الله تعالى فيجب تأويل الحديث)[4]، ثم ذكر أن المعنى يقطع عنك الثواب والفضل والأجر والرحمة، وقال الكرماني: (هو إطلاق مجازي عن ترك الجزاء)[5]، وذهب آخرون إلى أنه للازدواج قال المناوي: (ذكر بهذه العبارة للازدواج نحو نسوا الله فنسيهم، وإلا فالملال فتور يعرض للنفس من كثرة مزاولة شيء فيورث الكلال في الفعل وهو محال عليه تعالى)[6]، والمعنى: (فإن الله لا يمل أي لا يعرض عنكم إعراض الملوك عن الشيء أو لا يقطع الثواب والرحمة عنكم ما بقي لكم نشاط الطاعة)[7].

ومعنى الحديث أن الله تعالى يرزق كل مكلف قدرا من الطاقة، فيكون المطلوب منه بقدر طاقته، وهذا المعنى ورد في عدد من آيات القرآن، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾، فأرشد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم المكلف هنا بأن يأخذ من العمل قدر طاقته لا يزيد على ذلك حتى يسلم من الآفات.

مقاصد الحديث:

-مقصد التيسير والتخفيف.

---

[1]-مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم، 540/1.
[2]-البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل.
[3]-بدر الدين العيني، عمدة القاري، 85/11.
[4]-نفسه، 85/11.
[5]-القسطلاني، إرشاد الساري، 402/3.
[6]-المناوي، فيض القدير، 433/3.
[7]-نفسه.

-مقصد حفظ الطاقة، لأن من يعمل فوق طاقته سيضره جهده، وسينقطع بعد زمن يسير.

-مقصد الدوام فإن الله يحب من يداوم على عمله، والسنة الإلهية تقضي بأن المداومة تأتي بنتائج كثيرة ومباركة (لأن العمل الدائم ولو كان قليلا يؤدي مع الزمن إلى التراكم الكمي والنوعي للإمكانات والخبرات التي تعزز فعالية الأداء الاجتماعي والحضاري للفرد والمجتمع)[1].

-مقصد النشاط والمتعة في العمل ونبذ السآمة.

-مقصد الوقاية من العياء في العمل.

-مقصد حفظ النفس.

-مقصد حفظ المال.

السنة الإلهية في الحديث: سنة المداومة على العمل

هذه السنة هي الاستمرار في العمل والمداومة عليه وكلما كان ديمة زمنا بعد زمن كان أفضل وأحب إلى الله، ويورث الدوام ثمرات جليلة، ولها أمثلة لا تحصى في السنن الكونية وفي الحياة فإن سنن الله ثابتة ماضية في اطراد وتتكرر بصورة دورية لتعلم الإنسان كيف يداوم على العمل عبادة أو غيرها وكيف يستمر في الإنتاج لا يفتر ولا يضعف ولا ينقطع، وذلك حين يحترم هذه السنن ويأخذ من العمل ما يطيق فيحافظ على قدرته من الضعف والتلف، وقد جعل الله تعالى الليل والنهار متعاقبين ليكون ذلك عونا للإنسان، فيعمل نهارا ويأوي إلى راحته ليلا ويجدد قوته ويصون طاقته، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (الفرقان،47)، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ،10-11).

نموذج مادي من عالم السنن الكونية:

[1]-الطيب برغوث، إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية،

إن تكون المصاعد والنوازل في المغارات والكهوف الجيرية خاضع لهذه السنة إذ أن قدر واحد سنتيمتر مكعب يلزمه قرن من الزمن، وهكذا مع الدوام في نزول القطرات ومع أنها ضئيلة وضعيفة ولكن طول الزمن مع استمرار الترسب يؤثر بما نراه من الكتل والأشكال والأحجام، إنها سنة المداومة وكيف تترك أثرها في هذا الكون.

وهذه السنة تتوافق وتتلاءم مع تلك المقاصد المستنبطة من النص النبوي، بل هي السبيل إلى تحقيقها والحفاظ عليها والاستفادة منها فتفعيل هذه السنة يحقق تلك المقاصد.

المبحث الثاني: حديث القصعة:

عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل: يا رسول الله فمن قلة يومئذ؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت»[1] .

عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها»، قال: قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن»، قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: «حب الحياة وكراهية الموت»**[2].

معنى الحديث:

تداعى: فيه الفصح عن الاجتماع والتكتل بين المجموعات البشرية، وفيه إشارة إلى الخوف من مواجهة المسلمين فيدعو بعضهم بعضا للاستعانة والمدد ويتبع ذلك تقسيم التركات والغنائم،

---

[1]-الألباني، الأحاديث الصحيحة، رقم 956.
[2]-رواه أحمد، المسند، 614/45، سنن أبي داود، 333/2.

(والمعنى كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضا إلى قصعتها أي التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع فيأكلون منها عفوا صفوا كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم أو ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم).[1]

والغثاء قلة شجاعتهم ودناءة قدرهم وخفة أحلامهم، (وخلاصته: ولكنكم تكونون متفرقين ضعيفي الحال خفيفي البال مشتتي الآمال)[2].

هذه نبوءة من النبي صلى الله عليه وسلم عن حالة يعيشها المسلمون حين يضعفون فتهجم عليهم الأمم القوية لتنال منهم ومن أرضهم ومن أعراضهم، قال البيضاوي: (يريد بالأمم أرباب الملل المغايرة للإسلام الضالين عن الهدى يدعو عليكم بعضهم بعضا ليقاتلوكم، ... وأراد بالوهن ما يوجبه ولذلك فسره بحب الدنيا وكراهة الموت)[3]، والصحابي يسأل عن الوهن وهو في الحقيقة إنما يسأل عن سبب الوهن، ولذلك قال ابن مالك (ت854هـ): (ليس السؤال عن نفس الوهن بل عن سببه وموجبه (حب الدنيا وكراهية الموت)، فإنهما يدعوانكم إلى احتمال الذل من العدو ووقوع الوهن في قلوبكم)[4].

مقاصد الحديث:

-تحقيق معجزة من معجزات الأخبار الغيبية للنبي صلى الله عليه وسلم.

-مقصد حفظ أرض المسلمين.

-مقصد التحذير من الغثائية.

---

[1]-علي القاري، مرقاة المفاتيح، 3366/8.
[2]-نفسه.
[3]-البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، 313/3.
[4]-ابن مالك، شرح المصابيح، 468/5.

-مقصد التحذير من حب الدنيا وكراهية الموت، وقد قال أبو بكر الصديق لخالد رضي الله عنهما: اطلب الموت توهب لك الحياة[1].

-سبب الانتهاب.

-مقصد التحذير من القابلية للاستعمار والاستلاب والاستعباد، فإن الأمم القوية تتربص بالأمم الضعيفه لتنهبها وتستولي على خيراتها وتتحكم في مصائرها وتستعبد أبناءها وتجعلهم خداما لمصالحها حفظة على مستقبلها، والدليل التاريخ والوقع.

السنة الإلهية: سنة الصراع والتداول:

كما جاء في الآية الكريمة: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ (آل عمران،140)، فهذه السنة تقضي بأن الأمم القوية تطغى بقوتها وعنفوانها، وتظلم بغرورها وكبرها، فتتربص بالأمم الضعيفة ولا تعدم ذريعة لأن تأخذ خيراتها فتستولي على الأرض وتستبيح العرض وتتصرف في الرقاب وتسلب الأموال وتجرد تلك الأمة من كل أسباب القوة والحياة والعلم والنهضة، بل تتعاون مع الأمم الأخرى على هذا الشر، ووقع هذا للمسلمين، فكانت معجزة إخبارية للنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإنه لما دب الضعف في المسلمين وأصاب الوهن الأمة تداعت أمم الغرب متعاونة متحالفة تأخذ من أطراف الأمة الإسلامية شبرا شبرا وقطرا قطرا، فاستعمر المغرب العربي ثم استعمر المشرق وباقي بلاد المسلمين، ولا يزال المسلمون يعانون من وجع الاستعمار ودماره وخططه ودسائسه، بل لا يزال مكره مستمرا في صور شتى أمر وأدهى إلى اليوم، ولن يتوقف تحقيقا لسنن الله في الحياة.

فسنة الصراع بين الأمم تقضي بأن الضعيف لا حرية له ولا صون لأرضه وعرضه وكرامته بل تنهشه الأمم القوية من كل جانب، ولذلك تسعى الأمم إلى تكوين تكتلات إقليمية لحفظ أمنها وحماية نفسها.

---

[1]-أبو زهرة، زهرة التفاسير، 902/2.

وفي سياق هذه السنة الإلهية فإن النبي صلى الله عليه وسلم حذرنا ونصحنا وأرشدنا، فأبلغنا أن ذلك يوشك أن يكون، وكان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون إلى طلب النصيحة والعلم فعلمهم سبب القضية وكيف يكون المخرج، وفي هذا تحقيق المقاصد الشرعية والحفاظ عليها فنبه إلى السبب الرئيس في هذا التداعي وهو أمر علاجه في باطن القلوب حب الدنيا وكراهة الموت، وهو إرشاد إلى نبذ ذلك إذا أردنا الخروج من المأكلة إلى بر الأمان، وهو الذي حصل برفع راية الجهاد في بلاد المسلمين حتى حرروا أوطانهم، ولكن لا يتوقف الصراع والتداول التاريخي والسنني في الحياة، بل يتجدد بوسائل عصرية وأساليب مختلفة وتستمر مأساة الضعفاء ومعاناتهم.

المبحث الثالث: حديث النية:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لكل امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[1].

إن الإنسان في حياته تحركه نيته وتوجهه في أعماله تصوراته ومعتقداته وأفكاره، فهو ينطلق مما يرسمه له عقله، وهنا ينبهنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى إحضار النية، وهذا إحياء للعقل وإيقاظ له؛ لأن العمل تسبقه النية فإن كان لله نال صاحبه الأجر وإلا فلا.

قال الخطابي: (فإن النية هي المصرفة لها إلى جهاتها، ولم يرد به أعيان الأعمال لأن أعيانها حاصلة بغير نية)[2]، وأراد (معناه أن صحة الأعمال ووجوب أحكامها إنما تكون بالنية)[3]، هكذا قال، ولكن من غير الممكن أن يصدر فعل بشري أو يوجد عمل دون الإرادة له ولا محل للصدفة.

---

[1]-البخاري، كتاب كيف بدء الوحي، باب النية في الأيمان، مسلم، كتاب، باب، إنما الأعمال بالنية.
[2]-الخطابي، معالم السنن، 244/3.
[3]-نفسه.

إن السنة الجارية في حياة البشر تقضي أن العمل لا بد وأن تسبقه تصورات وتمثلات ودوافع نفسية وحوافز روحية، وقد نبأنا الله عن قصة آدم حين أسكنه الجنة ولكن إبليس أخرجه منها باتباع واستثمار هذه السنة وهي التأثير بالدافع والحافز ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ (الأعراف،20-22)، فكان التأثير الذي أوقع آدم وحواء في تلك الخطيئة، فالعمل تسبقه النية والإرادة والنية دلالة على الجوانب النظرية والفكرية في العمل البشري.

فمن الناحية الواقعية النية هي سبب ميلاد العمل وهي المحددة لخطواته وحدوده ورسم مآلاته، ومن الناحية التشريعية النية تحدد المسؤولية وأنواع الجزاء ومقاديره.

مقاصد الحديث:

-مقصد الإخلاص لله عز وجل.

-مقصد العلم لأن النية في حاجة إلى العلم.

-مقصد التفكر والتأمل.

-مقصد الصدق.

-مقصد السكينة والطمأنينة.

-مقصد البصيرة، وهو حد زائد على العلم لذلك استحسنت إفراده عنه.

-مقصد المباح ليكون مندوبا مأجورا عليه.

-مقصد الإرادة: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾ (التوبة،46).

السنة الإلهية في الحديث: سنة الإرادة والفكر:

تبنى الأعمال على الإرادة والفكر، بل الإرادة هي الطاقة الأصيلة للإنسان في الإنتاج الفكري والعلمي والمادي ومن ثم الحضاري، فالإرادة هي الركن الأساس إضافة إلى الأركان الأخرى في بناء الحضارة، وهذا الحديث نص هام يحدد مصير الإنسان ونهاية جهده وثمرات أعماله فهو يربط بين مقاصد المكلف وبين هذه السنة في حركاته وسكناته.

المبحث الرابع: حديث (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم):

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1]، وفي رواية لمسلم: «**المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله**»، وفي رواية أخرى لمسلم أيضا: «**المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**».

معنى الحديث:

مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاطف المجتمع المسلم في المصائب والنكبات بالجسد الواحد فيتألم الجميع من المصيبة ويفزع الجميع للقيام بالواجب من التراحم والتعاون

هذا إرشاد من النبي صلى الله عليه وسلم إلى حقيقة وحقوق الأخوة الإسلامية والإيمانية من التواد والتراحم والتعاطف (فيجب على المسلمين امتثال ما حض عليه عليه السلام من ذلك والتعلق به)[2].

مقاصد الحديث:

[1]-صحيح البخاري، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، مسند أحمد، 323/30.
[2]-القاضي عياض، إكمال المعلم، 57/8.

-مقصد المؤازرة في النوائب والمصائب والتعاون في المهمات والأعمال.

-مقصد الإحساس بروح الجماعة ونبذ الفردية.

-مقصد التواد ونبذ التباغض. وفي حديث آخر: «**لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا**»[1].

-مقصد التراحم ونبذ التآذي.

-مقصد التعاطف ونبذ التجافي.

-مقصد التماسك كالجسد الواحد.

السنة الإلهية في الحديث: سنة الوحدة العضوية:

ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا وهو الجسد الواحد كيف تحيى فيه الأعضاء فبمثل ذلك التأثر الذي يبديه كل الجسد عند مصاب عضو واحد يدعونا لأن نستجيب في ظلال التراحم والتعاطف، لأن الرابطة عضوية تلاحمية يتأثر الجميع بما يصيب أي أحد منهم،

فإذا كانت وحدة الجسد تفرض ذلك حتما لجريان سنن الله واطرادها فإن جسد المجتمع المسلم ينبغي له أن يأخذ بحظ هذه السنة وأن يتلاحم الجميع ويتراحم ويتعاطف مع أي فرد كان من كان إذا ألمت به كربة أو أصابته نائبة أو نزلت به حاجة، وذلك الشعور بالتلاحم والوحدة الاجتماعية والأخوة الصادقة الصافية يحقق تلك المقاصد التي تستنبط من منطوق الحديث ومن مفهومه.

المبحث الخامس: حديث إن الله كتب الإحسان:

[1]-أحمد، المسند، 419/21.

عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»[1]، وخرجه الطبراني من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا حكمتم فاعدلوا وإذا قتلتم فأحسنوا إن الله يحب المحسنين**».

قال ابن رجب: (وظاهره يقتضي أنه كتب على كل مخلوق الإحسان فيكون كل شيء أو كل مخلوق هو المكتوب عليه والمكتوب هو الإحسان، وقيل: إن المعنى أن الله كتب الإحسان إلى كل شيء أو في كل شيء أو كتب الإحسان في الولاية على كل شيء، فيكون المكتوب عليه غير مذكور، وإنما المذكور المحسن إليه)[2].

ولفظ الكتابة يفيد معنيين، كتب بمعنى أوجب فيفيد الواجب الشرعي، والمعنى الثاني الواقع قدرا[3]، والذي يقع قدرا إذا لم يتحقق يكون خرقا على سبيل المعجزة كالنار مع إبراهيم وعصا موسى وفلق البحر لموسى.

وذكر لفظ الكتاب في القرآن كثيرا: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾ (النساء،103)، ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ**﴾ (**البقرة،178**) ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ (**البقرة،186**) ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ**﴾ (**البقرة،216**).

كما ذكر الإحسان أيضا كثيرا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾ (**النحل،90**)، ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (**البقرة،30**). ﴿**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ (**القصص،77**).

ومن معانيه المستفادة منه الأمر بالرفق واللطف (أي أمر بالرفق واللطف)[1]، قال ابن دقيق العيد: (وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد كثيرة)[2].

---

[1]-رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، أحمد، المسند، 362/28.
[2]-ابن رجب، جامع العلوم والحكم، 380/1.
[3]-نفسه.

مقاصد الحديث:

-بيان حسن خلق الله وإبداعه، ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ (المؤمنون،14).

-مقصد إجلال الله وتعظيمه على كمال أفعاله.

-مقصد إعظام الشكر لله على كمال أفعاله لأنها في غاية الإحسان ولمصلحة الإنسان.

-مقصد التخلق بالإحسان.

-مقصد الإحسان إلى الحيوان.

-مقصد تعظيم تدبير الله في كل شيء.

-مقصد نفي العبث عن خلق الله.

-مقصد الإحسان في العبادة والعمل والمعاملة.

السنة الإلهية في الحديث:

خلق الله كل شيء على أفضل هيئة تحقق مقاصده والفائدة منه

﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾ (النمل،88)

والإحسان وصف جليل لجملة لا يمكن إحصاؤها من السنن الإلهية في الكون وفي النفس وفي المجتمع البشري، فمن ذلك الإحسان في نظام الكون في حركته في ظواهره في علاقات بعضه ببعض، في نجومه وكواكبه وأقماره، في الرياح حركتها وسكونها، في الماء سريانه وركوده وأحواله، وفي النفس كذلك من الإحسان والإتقان ما عرفه الإنسان وما يجهله ويكشفه الزمان جيلا

---

[1]-ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، 210/2.
[2]-ابن دقيق العيد، شرح الأربعين النووية، 72.

فجيلا وطورا فطورا، ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ (فصلت،53).

وهذا الحيوان الأليف المطيع الذي خلقه الله فأحسن خلقه ورباه وغذاه وسقاه وحماه ثم سلطك عليه أيها الإنسان لتنال منه فعامله برفق ولطف وأحسن كما أحسن الله إليك.

المبحث السادس: حديث من حسن إسلام المرء:

الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[1].

معنى الحديث: يكون المسلم موصوفا بصفة الحسن في حرصه على اجتناب ما لا يفيده وما لا علاقة له به وهذا في الاعتقاد والأفكار والأخلاق والتصرفات والمعاملات، لأن ذلك (ربما شغله عما يعنيه أو أداه إلى ما يلزم اجتنابه)[2].

مقاصد الحديث:

-مقصد حفظ الطاقة والجهد.

-مقصد حفظ المال فلا يبدده فيما لا ينفع.

-مقصد حفظ الوقت فلا ينشغل بالسفاسف وما لا طائل منه.

-مقصد حفظ اللسان فلا يشغل لسانه بما لا خير فيه ويمسكه عن التوافه.

السنة الإلهية في الحديث:

في الحديث سنة كونية تعمل في مجالات مختلفة وهي سنة حفظ الطاقة ومنها يكون حفظ التوازن في الكون وفي الحياة، وطبيعة الإنسان جعلت ميسرة لأشياء وغير ميسرة لأخرى، فكل إنسان يعمل وفق ما يناسبه وهذه سنة طبيعية فيعمل وفق مؤهلات محدودة وإمكانات محدودة فلا يبذرها فيما لا يعنيه فيضيع ما يعنيه وتفوته مصالحه الحقيقية.

المبحث السابع: حديث مثل الذي يذكر ربه:

---

[1] -صحيح ابن حبان، 466/1.، الترمذي، السنن، 136/4، ابن ماجة، السنن، 1315/2، أحمد، المسند، 255/3، مالك، الموطأ، 1328/5.

[2] -الباجي، المنتقى، 212/7.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[1]، وعند مسلم «**مثل البيت الذي يكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**»[2].

معنى الحديث:

يدل الحديث على تشبيه الذاكر الله بالحي فتفيض عليه معاني الحياة من حركة وتوهج وإشراق وتصرف، بخلاف غير الذاكر الذي شبهه بالميت، فهو عاطل جامد لا يصدر شيئا. والبيت يراد به ساكنه، (إنما يراد به ساكن البيت فشبه الذاكر بالحي الذي ظاهره متزين بنور الحياة وباطنه بنور المعرفة وغير الذاكر الذي ظاهره عاطل وباطنه باطل)[3]، فهو من قبيل ذكر المحلّ وإرادة الحالّ[4]، (وقيل: موقع التشبيه النفع لمن يواليه والضر لمن يعاديه، وليس ذلك في الميت)[5].

مقاصد الحديث:

-مقصد التصرف بإرادة وحرية.

-مقصد وهج الحياة وإشراقها في الذاكر.

-مقصد النفع والإنتاج.

-مقصد التفاعل مع الكون.

-التحذير من مفاسد ضارة:وهي الجمود الفكري والعلمي وجمود الإرادة.

السنة الإلهية في الحديث:

تفيض السنن الإلهية من معنى الحياة، لأن الحياة خلقت بحكمة الله وعلمه وجميل لطفه وعنايته وواسع رحمته، فالحياة تسيرها نظم سننية وتمر بها من طور إلى طور ومن حال إلى أخرى في انتظام بديع، وتمثيل الذاكر ربه بالحي يفيض عليه من آثار هذه السنن ومن إشراقها ووهجها ومن دأبها وثمارها[6]، (ووجه التشبيه بين الذاكر والحي الاعتداد به والنفع والنصرة ونحوها، وبين تارك الذكر والميت التعطيل في الظاهر والبطلان في الباطن)[7].

---

[1]-صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، 86/8.
[2]-صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، 539/1.
[3]-ابن حجر، فتح الباري، 210/11-211.
[4]-بدر الدين العيني، عمدة القاري، 27/23.
[5]-علي القاري، مرقاة المفاتيح، 1541/4.
[6]-القسطلاني، إرشاد الساري، 231/9.
[7]-بدر الدين العيني، عمدة القاري، 27/23.

فالذاكر مثل الحي في حركته وفي عطائه ونفعه بخلاف ما يصيب غير الذاكر من الموت، فهو جماد تتحكم فيه سنن العطالة وهو خلو من الفائدة، فإذا كان من سنن الله أن الحي يدرك ويبصر ويعلم فكذلك ذاكر الله يدرك الحقائق ويبصرها ويعلم ما ينفعه وما يضره ولا يكون غير الذاكر مثله، ومن سنن الله أن الحي ينفع نفسه وينفع غيره فالذاكر ينفع نفسه وينفع غيره بدعوته وقدوته وعلمه وعمله وأثره، وغير الذاكر يموت أثره وتندرس معالمه.

المبحث الثامن: حديث السفينة:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في مثل القائم على حدود الله والواقع فيها أسفلها يمر على الذين في أعلاها فتأذوا به، فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا: ما لك؟، قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجّوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم**»[1]، وفي روايات أخرى: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها**..)، قال ابن حجر رحمه الله: (وهو أصوب).

معنى الحديث:

يصور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة العلاقات الاجتماعية ويمثلها بقوم ركبوا سفينة، فكل ما يجري في هذه السفينة يمس الجميع، والنجاة منوطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على منهج التعاون، فإن لم يكن ذلك غرقت السفينة وهلك الجميع.

مقاصد الحديث:

-مقصد تحقيق البيان والوفاء بالتبليغ والتزكية والتعليم من قبل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

-مقصد التآلف والتراحم والتواصي بين أفراد المجتمع.

-مقصد ترجيح المصلحة الكبرى على المصلحة الصغرى والمصلحة العامة على المصلحة الخاصة ودرء المفسدة الكبرى بترك الصغرى ودرء المفسدة العامة بترك الخاصة.

-مقصد التحذير من عقوبة ترك الأمر بالمعروف.

---

[1]-صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، 161/3.

-مقصد ضرب الأمثال في بيان الأحكام وكلام العلماء.
-مقصد التعاون، قال علي القاري رحمه الله: (وإنما جمع فرقة النهاة إرشادا إلى أن المسلمين لا بد وأن يتعاونوا على أمثال هذا النهي، أو إلى أن من يصدر عنه هذا النهي فهو كالجمع (إن إبراهيم كان أمة))[1].
-مقصد الصبر على أذى الجار دفعا للأذى الأكبر.

السنن الإلهية في الحديث:

يصور لنا هذا النص النبوي الشريف حقيقة المجتمع المسلم فإن مثله مثل السفينة الواحدة على ظهر البحر والأفراد ركابها، وإن تصرفات هؤلاء الأفراد تحكمها الضوابط والسنن الإلهية، فمن أراد فعل شيء لمصلحته ينظر إن كان ذلك يجر المفسدة أو لا، فمن أراد خرق السفينة وهو يزعم الإصلاح وجلب المنفعة ودرء الأذى يكون مخطئا، وهو يتسبب لا محالة في هلاك الجميع، وهنا تأتي سنة التدافع السنة الإلهية في الأخذ على يد المفسد وإبطال المنكر وقطع الفساد فينجو الناس كلهم، لا بد من مدافعة المنكر وصد غائلة الفساد، لأن السنة الإلهية إذا نزل عقابها لا تحاشي أحدا ولو كان من الأخيار، وهذا تنبيه وترشيد نبوي للعناية بالقضايا العامة في المجتمع ونبذ العزلة في أسلوب تربوي سنني حكيم.

المبحث التاسع: حديث من قال هلك الناس:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكُهم»[2]، وفي رواية: «فهو أهلكَهم» بالفتح.

معنى الحديث:

من يتحدث عن الناس فيحقرهم ويعيبهم فهو أشد منهم هلاكا، لأنه ركب معصية الكبر مع سوء الظن بالناس، قال مالك رحمه الله: (معناه هو أفشلهم وأرذلهم أن يقول ذلك بمعنى هو خير منهم)[3]، وعلى الوجه الثاني أي رواية فتح الكاف يكون المعنى أنه يثبّطهم ويقنّطهم فيدفعهم إلى اليأس والهلاك.

---

[1]-علي القاري، مرقاة المفاتيح، 3211/8.
[2]-موطأ مالك، 1433/5، مسند أحمد، 204/14.
[3]-الباجي، المنتقى، 309/7.

مقاصد الحديث:

-مقصد التحذير من الكبر والبطر.

-مقصد التحذير من التحقير.

-مقصد التحذير من التقنيط.

-مقصد التحذير من سوء الظن والحكم بعدم العلم.

وتكون هذه القولة حسب حال قائلها ونيته فقد لا تفيد هذه المحاذير، فقد وردت على لسان أعرابي أمام رسول الله استغاثة وطلبا للدعاء، قال الأعرابي: «يا رسول الله هلكت الماشية، هلك العيال، هلك الناس فادع لنا، فرفع رسول الله يديه يدعو»[1].

السننية في حديث من قال هلك الناس:

قال الإمام ابن باديس رحمه الله: (هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على النفسية البشرية، فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل وترجع إلى أحط دركات السقوط)[2].

وبعد أن بين حاجة المربي إلى هذا الأصل سواء كان مربيا للصغار أم للكبار وللأفراد أم للأمم بين أن (التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتل للنفوس، نفوس الأفراد والجماعات وذلك ضد التربية، والاحترام والتنشيط وبعث الرجاء إحياء لها)[3].

فهذه سنن فاعلة في نفوس الأفراد والعلاقات الرابطة، وللكلمة فاعلية سحرية ودورا عظيما يصل إلى حد كونه من وسائل الحرب النفسية التي تتخذها الأمم في الأيام الصعبة لتدافع عن نفسها وترد كيد أعدائها، والإعلام المعاصر يتخذ من ذلك ذخيرة وفيرة في نشاطه ورسالته في المجتمعات.

الخاتمة:

إن المقام لا يسمح بالتوسع في إيراد نصوص كثيرة وفي مواضيع متنوعة وفي أبواب فقهية ومعرفية مختلفة، ولكن هذه المحاولة المتواضعة تسمح بذكر بعض نتائج البحث في الموضوع، فنلاحظ أنه تتلاقى المقاصد في التفسير المقاصدي للنصوص التي درست مع السنن في الخصائص التالية:

---

[1]-صحيح البخاري، ابن بطال، شرح صحيح البخاري، 20/3.

[2]-ابن باديس، مجالس التذكير، 80.

[3]-ابن باديس، مجالس التذكير، 80.

1-الثبات والاطراد: فهي ثابتة مطردة، هذه في الكون والنفس والأخرى في التكليف والتشريع.

2-الغائية: كل منهما لغاية واحدة وهي مصلحة الإنسان عموما.

وتفترق معها فيما يلي:

1-السنن الإلهية أبين وأوضح.

2-السنن المقاصدية تشريعية تكليفية أما السنن الإلهية فمنها ما هو قدري تكويني وما هو شرعي تكليفي.

أما تفعيل السنن الإلهية وهذه المقاصد فهو الأمر العملي الذي تبتغيه الشريعة، فهذه النصوص بفهمها وإدراك مقاصدها يكون المسلم أقرب للعمل بها وتطبيقها، فكيف لا يحسن من يرى الإحسان في كل شيء، وكيف لا يحرص على النظام وحفظ الوقت وأداء العبادات مثلا كالصلاة في وقتها من يرى ذلك النظام الدقيق وذلك التوقيت الصارم في كل الأشياء.

والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

-طيب برغوث، إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت، ط1، 2007م.